غزل العقـــاد

للأستاذ سيد قطب

(بقية المقال الثامن عشر)

والآن نستعرض حالة دامية وجيعة ، عميقة الألم والفجيعة ، يزيدها جرحا وإيلاماً ما يبدو به قائلها من تماسك وتجلد وتجمل .

إنه « يوم الظنون » : يوم يقف الانسان تتجاذبه الدوافع والانفعالات ، ويتقاذفه الاقدام والاحجام، وتتراءى له المسارب والطرقات ، وهو لا يدرى أيها أولى بالاتباع ، بل هو لا يملك أن يدرى ، لأنه مسلوب اللب والارادة

فإذا وضعت إلى جانب هذه الصورة شخصية العقاد الجبارة ، أمكن أن تدرك مدى الألم العاصف ، ومبلغ الفاجعة القاصمة :

يوم الظنون صدعت فيك تجلدى ... وحمات فيك الضيم مغلول اليد
وبكيت كالطفل الذليل أنا الذى ... مالان فى صعب الحوادث مقودى
وغصصت بالماء الذى أعددته ... للرى فى قفر الحياة المجهد
لاقيت أهوال الشدائد كلها ... حتى طعنت فلقيت مالم أعهد
نارَ الجحيم إلىّ غـــير ذميمة
وخذى إليك مصارعى فى مرقدى
حيران أنظر فى السماء وفى الثرى
وأذوق طعم الموت غير مُصرَّد (١)
أروَى وأظمأ : عذبُ ما أنا شارب
فى حالتىّ نقيعُ سم الأســـود (٢)
وأجيل فى الليل البهيم خواطرى ... لا شارق فيه ولا من مسعد
وتعيدُ لى الذكرات سالف صبوتى
شـــوهاء كاشرة كما لم أشهد
مسخت شمائلها وبُدِّل سمتها ... وبدت بوسم فى السعير مخلد
ياصبوة الأمس التى سعدت بها ... روحى ، وليت شقيها لم يسعد
وعرفت منها وجه أصبح ناضر ... ورشفت منها ثغر ألعس أغيد
سوحتِ بل جوزيتِ كيف وعيت لى
بالأمس فيك ضراوة الذئب الصـدى ؟
سوحت بل جوزيت كيف طويت لى
زرق الأســـنة فى الاهاب الأملد
أمسيت حربى فى الظلام وطالما ... جلّيت لى وجه الظلام المربد

(١) صرد الرجل سقاه دون الرى (٢) الثعبان

ورجعت أهرب من لقاك وطالما
ألفيت عندك فى الشدائد مقصدى
ما كان من شيء يزيد تنعمى ... إلا يزيد اليوم فيك تلددى
أواه من أمسى ومن يومى معاً ... والويل من طول التردد فى غدى
أهب الخلود كرامة لبشرى ... أن ليس يومى فى العذاب بسرمد
وأبيع حظى فى الحياة بساعة ... أنسى بها عمرى كأن لم أولد
وأسوم مرعى العيش غير مزود ... وأرود روض الحسن غير مقيد

يا للهول ! لكلما قرأت هذه الفطعة سرت رعدة فى مفاصلى ، وقشعريرة فى كيانى ، وأحسست أمامى بانسان يعتصر نفسه قطرة قطرة فى ألم مبرح كظيم . وهو مع هذا يقظ متنبه لكل وخزة لا ينسى أن صبوة الأمس كانت تخفى فى طياتها ضراوة الذئب الصدى ، وأنها كانت تفعمه متعة ، لتفعمه بعد ذلك ألماً منشؤه هذه المتعة ذاتها لا سواها

وفى يقينى أن هذا أفجع موقف مر بالشاعر ، وقد لقى أياماً كثيرة من أيام الظنون ، ولكنها ليست من هذا النوع المسموم؛ وما كان ليستطيع بعده أن يقارفه ، وما كان قلبه ليصلح أن يوغل فى الحب هذا الايغال ، وأن يأخذه بهذا الجد الصارم الذى يجعل الشك فيه دامياً تنضح منه النفس قطرات

وقد عاد إلى الحديث عن هذه « الظنون » فى قطعة « الحب المريب » من الوزن والقافية والشعور ! فكشف عن حالة نفسية فريدة ، صور فيها كيف يحيل الشك متعة اللقاء إلى جحيم لا يعد له جحيم الفقدان ، وكيف يقيم الحواجز والأبعاد بين أقرب قريبين فى الوجود :

إنى لفى ألمى بقربك كالذى ... يحنو على ولد مريب المولد
أبدا يغص بقربه وببعده ... ما بين عطف أب وجفوة مبعد
وأراك طوع يدى وألبث حائرا ... بين المحاذر منك والتودد
أرضى وأغضب ، لا الرضاء يبالغ ... أمن اليقين ولا الغضاب بمهتد
وأظل أسخر من رضاى وغبطتى
وأظل أسخر من عـذابى الأنكد
وأشـد من برح اللقاء بلية ... تأبى الشقاء عليك غير مفند (١)
ياهذه الدنيا أيندم باذل ... يعطى القنوط ندامة المتردد ؟
جودى على بشقوة لم ترجمى ... فيها على ندم إذا لم تسعدى !

ونستمير هنا من حديث العقاد عن « همام » فى « سارة » ما نستعين به على شرح هذه الحالة التى صورها فى نفس صاحبه أبدع تصوير :

(١) غير ملوم عليه

« كانت شكوكا صريرة لا تفسل صرارتها كل أنهار الأرض، وكل حلاوات الحياة . كانت كأنها جدران سجن مظلم ينطبق رويدا رويدا ؛ ولا يزال ينطبق وينطبق ، حتى لا منفس ولا مهرب ولا قرار ؛ وكثيرا ما ينتزع ذلك السجن المظلم طبيعة المرة اللئيمة ، فى مداعبة الفريسة قبل التهامها ؛ فينفرج وينفرج وينفرج، حتى يتسع اتساع الفضاء بين الأرض والسماء، ثم ينطبق دفعة واحدة ، حتى لا يمتد فيه طول ولا عرض ، ولا مكان للتحول والانحراف : بطل المكان فلا مكان ولا أمل فى المكان ووجب البقاء حيث أنت في ذلك الضيق والظلام ، فلا انتقال ولا رجاء فى الانتقال .

« وكان صاحبنا كالمشدود بين حبلين يجذبه كلاهما جذبا عنيفاً بمقدار واحد وقوة واحدة ، فلا إلى اليمين ولا إلى اليسار ، ولا إلى البراءة ولا إلى الاتهام ... بل يتساوى جانب البراءة وجانب الاتهام ، فلا تنهض الحجة هنا حتى تنهض الحجة هناك ، ولا تبطل التهمة فى هذا الجانب حتى تبطل البرئة من ذلك الجانب ؛ وهكذا إلى غير نهاية ، وإلى غير راحة ولا استقرار »

***

حتى إذا انتهى من الظن إلى « اليقين » كان يقيناً قاتلا دامياً كالظنون ! . وهى كذلك حالة فريدة من الحالات النفسية التى تجيش بها نفس العقاد الخاصة :

مضى الشك مذموماً وما كان ماضيا
فليتك تمسى عن يقينك راضيا
وجل عن التصديق أنك هاجر
وأنك مهجور وأن لا تلاقيا
فلله ماذا حل بالقلب فارعوى
وآمنت بالحق الذى كنت آبيا
وأمسيت تدرى أن للود غاية
وأن زماناً سوف يلقاك خاليا
وعشت ترى حبا لحبك ينقضى وما خلته إلا يد الدهر باقيا
مضى غير مردود كأنك لم تكن بعينيك ترعاه وبالنفس فاديا
ألا لا تذكرنى بصدق وددته على جنبات الغيب ما زال خافيا
ألا لا تذكرنى يقيناً شريته بأنفس ما يغلو به الشك شاريا
لكذّبتُ صدق الهجر لو أن موطناً
من الشك يوماً لم أئب منه خاويا
سل الصبح كم ماريته كلما بدا ولم يبد فيه ذلك الوجه حاليا
سل الليل كم جافيته كلما سجا ولم أرتقب فيه الحبيب الوافيا
سل النيل كم أنكرته كلما جرى ولم ألق فيه ذلك الحسن جاريا
سل الدار كم ناشدتها القرب راجيا
وأرهفت فى أنحائها السمع صاغيا
ويخدعنى ما اعتدت من طول قربه
فأحسبه عندى وقد بات نائيا
يريب فمى صمتى ليالىَ لا يرى على خده منه نجيا مناغيا
وتنكرنى كفى ليالى لا ترى على خصره منها نطاقا مدانيا
وتطلبه منى جفون تعودت على البعد أن تلقاه فى الحى آتيا
ويسألنيه كل يوم وليلة فؤاد يراه حيثما كان رائيا
وأين ؟ ولو أنى قدرتُ لما غدا به القلب ملتاعاً ولا الجفن شاكيا
وكيف بنسيان الأليف الذى به تذكره الدنيا إذا راح ناسيا
تفقده فى كل شئ فما اثنى فآمن بعد اليأس بالبين عانيا
سل الروض مطلولا . سل القفر صاديا
سل النجم لما غا . سل البدر ساريا
فانك تدرى كيف صدقت باسما إذا بت تدرى كيف كذبت باكيا
وأنك لا تخشى ردى الموت بعض ما
خشيت ردى الحق الذى لاح هاديا

وهكذا صار إلى اليقين ، بعد ما طرق كل باب من أبواب الشك ، فعاد منه خاويا ، ولم يصر إليه مع هذا فى سهولة ويسر ، ولكنه أنكر الدنيا ومعالمها ، وأنكرته نفسه وجوارحه . ولولا إرادة من حديد ، ما ثاب إلى هذا اليقين الأليم .

***

علام تدل هذه الصور النفسية الفريدة ؟

إنها دليل الثروة فى الأحاسيس ، والانفساح فى الشعور ، ومظهر الحياة النفسية المهيأة للتأثر ، القابلة للصوغ والانشاء .

وهذا وذلك من ميزات المدرسة الحديثة ، التى تخلص للحياة والاحساس بها ، لا للأوراق وما حفظته منها

وفى ماضى الأدب العربى كله وحاضره كذلك ، لا تجد نظيرا لهذه الصور النفسية ، مع شيوع الأحاسيس التى تستدعيها فى كل حب قديم أو حديث

إنما هى النفس المهيأة ، والطبيعة الخصبة ، لا الحادثة التى تخلق القول أو الاحساس

« حلوان »

سيد قطب